الحضارات بين التعايش والصدام

د.حسن بن فهد الهويمل *

> ■ الأحداث الجسام التي تعصف بالعالم تؤكد أهمية مبادرة خادم الحرمين الشريفين وأبعادها الإنسانية.

من الحصانة والرصانة أن يمتلك أي خطاب القدرة على التحرف السريع لمواجهة النوازل، مع الاحتفاظ بأدنى حد من محققاته، وأن يمتلك ذووه مرونة الحركة عند الرغبة في التحرف أو التحيز والقدرة الفائقة على التكيف غير المكلف وغير المخل بالثوابت لتجاوز المنعطفات الخطيرة واللحظات الحاسمة.

والحضارات المؤهلة لقيادة العالم هي الحضارات المستجيبة لفطرة الله التي فطر الناس عليها، ومن محققات الفطرة السليمة العدل والإحسان والحرية والمساواة والتسامح والتيسير والجنوح للسلام والتعايش الإنساني وتبادل المصالح والخبرات وتكافؤ الفرص واحترام الحقوق وتحقيق الكرامة الإنسانية: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠) ما أمكن ذلك، فإن كان هناك منكر أو فحش أو اعتداء أو مقاتلة على الدين أو إخراج من الديار أو مصادرة للحقوق؛ فإن ذلك ظلم وعدوان، وقد أذن الله للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير.

والأحداث الجسام التي عصفت بالعالم وأذاقته لباس الجوع والخوف حَدَتْ بمفكريه وقادته المحنكين إلى التفكير بخطاب يَدفع بالتي هي أحسن، ويُبشر الإنسانية بإمكانية الوفاق والوئام، وهو حلم المستضعفين في الأرض، خطاب يرجئ الخصام ويمكن من الاشتغال بالقواسم المشتركة بين سائر الحضارات، إذ ما من حضارة إنسانية إلا وهي خليط من الدرجات والدركات، وعند احتدام التنازع واستفحال التفاني يكون من الضروري التفكير بحلول توقف التدهور، وتحقن الدماء، وتلجم قالة السوء، وتحقق الممكن من التعايش والتعاذر والاشتغال بالجوانب الخيِّرة والمشتركة والتاريخ الحضاري مليء بالفترات المظلمة والمضيئة. وحوار الحضارات حين يكون ممكناً فإنه مطلب الخيِّرين والناصحين لأمتهم: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ (الأنفال: ٦١).

وإشكالية الحضارات السماوية والوضعية العِرقيّة والإقليمية أنها قد تحمَّل جرائر اللعب السياسية، بحيث يظن بعضهم أن صدامها منبعث من مبادئها، وليس مُحَصِّلةَ التعدي على الحقوق المشروعة للإنسانية، واستخدام القوة للهيمنة على مقدرات الشعوب واستباحة حقوقها.

والممارسات غير السوية التي بعثت الفتن من مراقدها لبَّسَتْ على العالم وأوهمتهم بصدام

* رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.

الحضارات، وهو تصور ينطوي على الخطأ في الاستقراء أو المكيدة الحاذقة، وليس هناك شك في وجود محفزات ومحرضات لاستفحال الفتن كالقمع والاستبداد وتلاحق الأزمات واستشراء بؤر التوتر في مناطق كثيرة من العالم، ومساندة الظلم وشرعنة التعدي السافر على الحقوق المشروعة. ولربما تكون أحداث الحادي عشر من أيلول - سبتمبر والقضية الفلسطينية والتطرف الديني والعلماني والفوات الحضاري والتفاوت المدني من الحواضن المخصبة للصراع والمحرضة على القتل الهمجي والفوضوية المستشرية، ومن أراد الوفاق في ظل هذه الظروف العصيبة فإن عليه أن يسعى إلى رفع الملفات الساخنة على ما هي عليه حتى يأذن الله بظروف مواتية تمكن من فتحها والسعي إلى حل معضلاتها، وطي مثل هذه السجلات المعقدة يُمكّن من فتح ملفات جديدة تدفع إلى الوفاق والتعايش، ولا سيما أن ذلك من الممكن والمطلوب، وبخاصة أن العالم يعيش درك الشقاء، ويتجرع مرارات التصرفات الهوجاء وغير المسؤولة، ومتى كانت الديانات السماوية والحضارات الإنسانية تريد السلام والوئام والحرية فإن التباطؤ والتردد من المقترفات التي لا تغتفر، والسلام الذي تتطلع إليه الشعوب المغلوبة على أمرها لا يكون سلاماً حقيقياً حتى يجنح إلى العدل إذ لا يتحقق في ظل الأثرة وفرض الإرادة بالقوة، والاستجابة المكرهة وانصياع الاضطرار يعني الاستسلام والتربص وهو ما لا يشفي غليلاً ولا يحقق التقارب المتكافئ، وأحسب أن عائد الوفاق مشترك؛ فالمعتدي يظل متوتراً ومتحفزاً وموظفاً كل إمكانياته لقمع الضحية، والمعتدى عليه يظل في حالة تربص أو تمرد يدمر كل شيء أتى عليه، وحالة الحرب واستمرار الثورات يعطلان كل الإمكانيات، والخلط بين الفكري والسياسي يُفوّتُ فرصة التأمل والاستقراء والتشخيص السليم للأوضاع، وكل مقدمة خاطئة تؤدي في النهاية إلى نتائج خاطئة.. فحين أصدر «صموئيل هنتنغتون» كتابه الضجة: «صدام الحضارات» تصدى له بعض المفكرين الغربيين الذين لم يستحوذ عليهم شيطان السياسة ولم يتخبطوا بوحلها ولم يتلطخوا بوخز لعبها القاتلة للقيم والأناسي، جاء هذا التصدي في سبيل تدارك الأمر والكشف عن الرؤى الخاطئة، ومن أفضلهم (هارالد موللر) الذي حوَّل حواره المباشر مع المؤلف إلى كتاب منهجي موضوعي سماه: (تعايش الثقافات مشروع مضاد لـ«هنتنغتون» وهو لكي يأتي الرؤية من قواعدها فقد حرر مفهوم (الحضارة)

الحوار بين الحضارات والثقافات يزيح الكثير من المغالطات ويفسح المجال للوقوف على الحقائق والمعلومات الصادقة.

و(الثقافة) والقوى المحققة لها، ومدى علاقة الثقافة بالسياسة، كما أكد أن الصراع ليس كامناً في الثقافات، ولكنه طارئ عليها، ومن ثم فإنه بالإمكان تفاديه والعيش بسلام، والمقدمة التي كتبها المترجم حاول أن يجعلها رصداً تاريخياً للإسهامات الفكرية حول تماس الحضارات ودواعي الصدام وإمكانيات التعايش.

وإذا كانت طائفة من المفكرين المجربين قد أبدت رغبتها في نبذ العنف والالتقاء على كلمة سواء، فإن بعضاً من الساسة المسكونين بالهمّ الإنساني بادروا إلى طرح مشاريع سلمية تحفظ الكرامات وتصون الحقوق وتحقن الدماء وتدرأ الظلم وتمكن من ممارسة الحوق والواجبات في ظل وفاق عالمي يوقف التدهور العالمي وينقذ البشرية من ويلات الفتن العمياء التي لا تصيبن الذين ظلموا خاصة، ولعل مبادرة خادم الحرمين الشريفين تأتي في مقدمة المحاولات الرائدة التي لقيت قبولاً عالمياً وإشادة جماعية، لأنها جاءت على قدر، وأسهمت في إيقاظ الضمير العالمي المأزوم. والعالم الذي يتخبط في الوحل بحاجة إلى عقلاء مجربين ناجحين يقيلون عثرته ويضمدون جراحه ويرشدون مساره. فالأوضاع العالمية لم تعد قادرة على احتمال مزيد من النزيف، والشعوب المغلوبة على أمرها ترقب من ينقذها من تلك الفتن المتلاطمة التي أتت على الأمن والاستقرار والحرية، وأشاعت الفوضى والفقر والبطالة والأوبئة ومزقت وحدة الأمم، فكرياً وطائفياً وإقليمياً وقبلياً، واستنزفت الخيرات وعطلت الخطط ونسفت المشاريع واستغلت ثمن الغذاء والدواء لجلب السلاح المدمر.

■ مبادرة خادم الحرمين الشريفين جاءت على قدر وأسهمت في إيقاظ الضمير العالمي المأزوم.

وحوار الحضارات الذي طرحه خادم الحرمين الشريفين يستمد لحمته من مبدأين إسلاميين:

- الدفع بالتي هي أحسن.
- الجنوح إلى السلام.

ومن تصوره أو قرأه على غير مراد صاحبه فقد جعله عبثاً يضاف إلى أعباء العالم، والذين حرفوا مراده إما جهلة من واجبنا إرشادهم أو ماكرون من حقنا الكشف عن مكيدتهم وفضح نواياهم السيئة، أو متخوفون متحفظون يلزم تطمينهم.

ورؤية خادم الحرمين الشريفين متى وعتها الشعوب وتمثلها القادة وعرف المعنيون مقاصدها، فإنها ستكون المنقذة للإنسانية المعذبة، وأخوف ما يخافه المتفائلون المباركون لهذه الخطوة التي جاءت في موعدها أن يقيض لها قراء يحرفون الكلم من بعد مواضعه بحيث يتصورونها إلغاء للخصوصيات أو إجهاضاً للثوابت، وفي ذلك تحريض رخيص وتشكيك مريب وتعميق للخلاف، ولن يبادر هذه القراءة المشبوهة إلا الذين هم أراذل القوم ممن لا يعيشون إلا في ظل الفتن والفوضى.

إن بإمكان الحضارات أن تتحاور وأن تتعايش، وأن تظل محتفظة بثوابتها ومحققات وجودها، والتاريخ الفكري والسياسي مليء بالفترات المضيئة التي مكّنت العالم من العيش بسلام، وتاريخ الحروب الدامية لا يشكل الجزء الأكبر في التاريخ الإنساني، والحروب لا تنشأ إلا في لحظات الجنون الإنساني والحضارة الإسلامية من أقدر الحضارات على التعايش والتعاون وتبادل المصالح والخبرات، بقي أن يكون قادة الفكر والسياسة صادقين مع أنفسهم ومع شعوبهم محبين للسلام نابذين للاستسلام معترفين بحق تقرير المصير للشعوب كافة. وتتابع الانهيارات الاقتصادية واستشراء الحروب المدمرة والتعديات السافرة على سيادة الأوطان؛ لا يمكن تداركها بمزيد من المواجهات العسكرية، وفي ظل هذا التفاقم الخطير يأتي دور العقلاء والحكماء والمجربين لطرح خطاب الوفاق العالمي والتعايش السلمي.